# « مكادي .. »

بقلم : اسماعيل حمّود

ولادة الشاعر حدث فريد ، وكذلك موته . فهو لا يوجد كبقية الناس ولا يموت موتهم . ان ولادة الشاعر تعني ولادة دنيا جديدة . وخلق عالم خاص يصوغه لنا من وراء روحه ، ويزخرفه بجودة صنعته ..

اننا نحن ، بقية الناس نولد مزودين بامكانيات خلق وابداع ، وكثيرا ما نحس بذلك فينا . لكننا ما نكاد ندخل الحياة حتى نقبل هذا العالم الجديد ـ عالم الاخرين ـ كما هو . فنقوم بعملية تعاقد ، ونتنازل عن الكثير من ذواتنا حتى يتيسر لنا العيش مع الاخرين وتحقيق بعض متطلباتنا الحياتية والمعاشية التي تلح علينا وتلقي علينا الواجبات بصيغ حتمية قسرية فنضطر لنوع من الاستسلام رخيص بسبب ضعف مقاومتنا او ضيق خيالنا او شدة الاسر في اطماعنا واهوائنا .

وهكذا نبدأ بالابتعاد شيئا فشيئا عن امكانيات الخلق التي تكلمنا عنها ، ونتنازل عن حقيقتنا الداخلية .

ومن ثم تتحكم فينا وتسيرنا عادات عقلية واطر فكرية مقتبسة وسائدة . فنتخلى عن الاصالة الفكرية الذاتية ، وتخمد فينا جذوة المشاعر والاحاسيس الداخلية . نتهافت الى هذه الدرجة حيث تغدو نماذج متشابهة مصاغة من ـ عالم الاخرين ـ لا من عوالمنا الداخلية .

تغدو الحياة بالنسبة لنا امرا جاهزا خالية من الاثارة لانها تأطرت وتقومت بقيم جاهزة ميتة الجذور .. وتغدو بالتالي نظرتنا للحياة امرا منجزا سلفا . اننا في هذه الحالة نكون قد فقدنا علاقتنا الصحيحة بالحياة اي فقدنا حقيقتنا . فنمضي العمر على هامش الحياة وعلى هامش الحقيقة الانسانية . اذن نولد ونموت في بدء ونهاية زمنيين فقط ، مؤرخين تاريخا ، ونحن مجردون من المعاناة للحقيقة الحية .

هكذا تأتي وتروح افواج البشرية مخلفة وراءها التكرار الممل ، والفراغ ، والغفلة . افلا يتسنى لنا ان نستيقظ من هذه الغفلة ؟ الا نقدر على تمزيق هذا النوع من القبول المطمئن السطحي للحياة اخلاصا منا لذواتنا ، ولحقائقنا الانسانية الكامنة في داخلنا ؟

مرة واحدة ، في لحظة ما ، الا تقدر على المجازفة ؟ على التضحية بما هو جاهز ومعطى ومفروض ؟ الا نقدر على السماح لانفسنا بان ننظر الى الحياة وان نتأملها باعيننا ؟ هنا تكمن الحياة الحقيقية التي لا يشرفنا امر كمثل النظر اليها واكتشافها . وهنا يغدو الانسان جديرا بالحياة حينما يسلط عليها وعيه فتصبح بالتالي حياته ، حياة الانسان ، محملة بقيمة غنية بمشعره واحاسيسه ، واضحه بفهمه وادراكه . واعتقد انها هي الحياة الجديرة بالخلود .

هكذا يولد الانسان الفذ ، مرة واحدة في لحظة ما . وهذه هي الولادة الصحيحة للانسان سواء اكان مفكرا ام اديبا ام فنانا .

وتجاوزا لما لهذه النماذج الانسانية من فروق جديرة بالبحث في هذا المقال ـ مع ان المجال يوحي بالسماح بذلك ـ تجاوزا لكل ذلك نصل الى نموذج الشاعر من خلال عبد الباسط الصوفي . لا يهمنا كثيرا ان نعرف عن عبد الباسط انه ولد ونشأ في حمص واكمل تحصيله العالي في جامعة دمشق ـ الاداب ـ ونال الوظيفة . يهمنا كيف ولد وماذا رأى وعلى اي وجه . كيف مات بل هل مات حقا عبد الباسط الشاعر .

تهمنا يقظته ، يقظة الانسان في داخل كيانه .

من المفروض بالشاعر انك تستطيع دراسته بمعنى ان تتعرف اليه ، والى حياته ، والى معرفته بالحياة وكيفية فهمه لها من خلال آثاره . وما « مكادي » الا احدى قصائد ديوانه الوحيد « ابيات ريفية » الصادر عن دار الاداب . والتي احتلت في نظري مكانة خاصة لما فيها من ترجمة صادقة واصيلة عن روحه الشعرية من ناحية . وعما يتلامح فيها من ترابط بين مغزى الحياة الذي ادركه الشاعر وبين نهايته المفجعة . فهو الذي مات في غربة عن وطنه واهله وبلده ، وهو الذي رأى الحياة ضياعا مستمرا ، والانسان فيها سيزيف يحاول دائما القبض عليها ولا يتمكن . وهو الذي قال في قصيدته « اضاع على الموج ايامه ، فكان رحيلا بغير اياب ».

شغل هذا البيت معظم العارفين لعبد الباسط واكثروا من ربط هذا البيت من قصيدته بنهايته وبموته . فكان لمكادي صدى يحمل طابع المأساة .

جلست معه قبيل سفره الى غينيا في مقهى الهافانا بدمشق فقال لي « يجب علي ان اظل اجهد ببناء نفسي حتى يستحق هذا الذي انظمه ان يسمى شعرا ، اننا بحاجة الى جهد مستمر حتى نصبح شعراء » . واضاف مؤكدا انه لا يبغي من ذهابه لافريقيا الا ان يعيش تجارب جديدة يتوقع فيها الغنى الشعري لا الغنى المادي.

واخيرا مات في افريقيا فماذا تركت له افريقيا . او ـ اخلاصا لتأكيده الاخير ـ ماذا ترك لافريقيا ؟!

يقولون هام بافريقيا عاشق في ضمير البحار وغاب .
يغلغل في الافق اسود كالقار عريان يلطم صدر العباب
يطير مع الوهم تركض عيناه ينصل من سدفي الاهاب .
اضاع على الموج ايامه فكان رحيلا بغير اياب .

تجربة ضياع افريقية الملامح . البحار والقار الاسود والعري وافريقيا . وروح تجلى غناها وبعد مراميها بصور الهيام بقارة (افريقية) او الطيران مع الوهم وركض العيون . انها روح الشاعر التي لا تحد والتي اغتلت هذه التجربة الجديدة ومع ذلك فالنتيجة سلفا : ضياع على الموج ولا اياب .

هكذا اذن الحياة ؟ . اذا كنا نبدأ بهذه القوة الضخمة ونحمل هذا التحفز المجنح ، فهل ننتهي هكذا على ذلك الموج ؟. ان عنفوان الموج وصخبه في عرض البحار سرعان ما يتلاشيان على صخور الشواطىء . ويضيعان بسهولة يائسة بين حبات رمل صغيرة اذا كان ذلك هو البدء فهل تكون النهاية هكذا ؟. هل نستسلم اذن ؟ وماذا يمكن للانسان ان يفعله ما بين البدء والنهاية ؟ يرى عبد الباسط ان يغني هذه الصورة ثانية . وبشكل اخر .

مكادي : انا والشراع الصديق وقيثارتي غربة وارتحال
شددنا الى البحر والبحر في الزرقة الابدية قبر الرجال
تميل بنا نزوات الرياح بانوائها الصافرات الصخاب
شددنا : عيونا وخفق شراع صديق وقيثارة من عذاب

لفظة مكادي توحي باستراحة يستجمع بها الشاعر انفاسه من عذابه المستمر بين البدء والنهاية دائما . يخاطب ويشكو . يقاوم . يتلاشى . فما تكاد تبدأ رحلة الحياة آمنة متهادية مع شراع صديق في لهجة هادئة ترافقه قيثارته يعزف الحانه الجميلة

وفي لحظة يلفي نفسه أمام الابدية المتجلية بزرقة البحر وعمقهـا وما تحفظه من اسرار عمن اضاعتهم . وفجاة تعاركه الرياح الصافرة الصاخبة فيدرك ان هذا هو القدر الذي ـ يميل ـ بنا .

اذن هذا هو « التخطيط » العام للحياة .

١ ـ الحياة لا تتحدد ببدء زمني ولا بنهاية تاريخية . حياة كهذه لاقيمة لها كما قلنا . ان اعيش كذا من السنين اهر لا يحمل اية قيمة . انه مجرد امتداد زمني يقبل القياس بوحدات قياسية تقبل التكرار فهي متماثلة متشابهة .

٢ ـ اما الحياة الحقيقية فهي تلك الحياة التي تكون مجالا لتحقيق الروح ، مجالا ليمارس الانسان نشاط روحه في محاولات مختلفة لوعي العالم . للانخراط في امتداد الحياة محاولين وعيها « والقاء القبض » على اللحظات العابرة .

٣ ـ ولا يهم كثيرا ان تكون الحياة مجدية ، قابلة لان تعاش ، مدعاة للتفاؤل ام لا . ليس المهم ان استفيد ، او ان اسعد ، او ان اغتني في هذه الحياة . بقدر ما يهمني « امتلاكها » عن طريق الوعي . ففي الوعي يتحقق الظفر الوحيد عليها حتى ولو كانت الحياة لا جدوى منها . المهم ان اعي لاجدواها . او ضياعها .

لقد تجلت الحياة لعبد الباسط ضياعا عميق الاغوار لكن لا يرى هذا الضياع الا من يتسنى له التحديق في المصير او المجهول «في الزرقة الابدية » ولا اقدر من الشاعر على ذلك . حينذاك يبدو الشاعر في ـ غربة ـ وارتحال ـ وغياب . وبالمقابل قدر يشده دائما ، وتميد به الريح العاتية . العذاب والصخب . وهو مشدود بقيده الابدي . ببقائه على الارض .

وانتقل عبد الباسط مع هذه الصورة الى اسطورة سيزيف ليجد فيها تعبيرا عما يراه هو في هذه الحياة .

اذا كانت الحياة طموحا وتطلبا دائما من جهة ومن جهة ثانية ضياعا ولا جدوى فذلك تماما ماعبرت عنه الاسطورة اليونانية في عذاب سيزيف الابدي وهو يرفع صخرته الى اعلى الجبل مدفوعة بقوة الانسان البطولية والقدر العنيد المتجلي بكثافة الصخرة يعيده دائما الى الحضيض . اذا كانت الحياة هكذا فما على الانسان الا مواصلة الدفع حتى تتجلى بطولته الحقيقية . البطولة الانسانية الجديرة بالحياة . ومن هنا يمكن الاستطراد للوصول الى فكرة النضال الانساني .

النضال الانساني استمرار في بذل الجهد . لايقوم النضال على مجرد الوصول الى الغاية . كما ان الهزيمة لاتجوز لان فيها التخلي والهروب . بل النضال بذل ، وبذلك يعبر النضال عن حقيقة الحياة وعن احترام كرامة العيش . انني اناضل ضمن ظروف وفي حدود . في الممارسة المباشرة للواقع ـ في ان ابقى ملامسا ـ الصخرة ـ . غير مدفوع بقوة سحرية بل بجهد انساني مجبول بالعرق والدم والدمع. ومن هنا يتحقق البطل الانسان . ان زمننا ـ ان كانت الحياة كلها كذلك ـ لايحتاج الى البطولة المتصورة الخيالية التي تحل الامور بضربة سحرية ، اذن لا معنى لبطولات كيشوتيه ، لانها خاوية ، فارغة ، ربما كانت تقوم على الصدفة والحظ ، لقد كان عنترة ـ كاسطورة ـ يهزم جيشا بسيفه هذا بطل العصور الوسطى . اما بطلنا الحقيقي فهو الذي يناضل ـ كانسان ـ في ظرف ووضع وكل انتصار يحققه فهو درجة في سلم البطولة . ونعود الى عبد الباسط والى ماتراءى له عن سيزيف :

« .. فسيزيف من قبل شد الى الصخرة الجامدة ،
تسلق يحمل اثقال خيبته الخالدة .
مكادي : انا بعض سيزيف ، بعض الذي كابده .
فرغت على الزرقة الابدية قلبا هشيما وروحا خراب
تسلقتها لجة وعرة وارتميت عليها عصي الرغاب »

نلمس اتجاها اميل للخيبة يتخللها حينا وحينا نوع من المقاومة ومع انه يعترف ـ روحا خراب و ـ ارتميت عليها ـ الا انه يصف نفسه ب ـ عصي الرغاب ـ .

اذن هناك حقيقة استراح لها عقله وهي ان الانسان كلما سمت روحه ازدادت اثقال خيبته . ومع ان سيزيف تتجلى حقيقته لا في الخيبة بل في معاودة الدفع للصخرة ، فانه لاينظر الى النتيجة منقطعة عن الجهد المستمر المبذول .

اقول : حقيقة استراح لها عقله ، لكن توثب روحه مازال يظهر خلسة، فكان حقيقة سيزيف في اعماق عبد الباسط تتابى حتى على الحد الذي رسمه عقله .

وتظل تطالعنا هذه الحقيقة كلما اوشك عبد الباسط ان ينظر الى النتائج فيخمد وتظل حقيقة روحه تتابى عليه ذلك .

« مكادي : انا بعض سيزيف ، بعض الذي جالده .
يطاردني اليأس دامي السياط كما طارده .
مكادي هما الصخر والعقم في لجتي الصاعدة .
هما الصخر والعلم في لعنة الهة حاقدة . »

فرغم انه اله هذه القوى المطاردة فأغرق الانسان في عذابها المقيم

« للبحر آلهة هزها حقدها الزبدي فثارت غضاب
منافقة تكتم السخريات وتطفو بزرق الصحاري سراب .

ثم نرى ان الحياة قد تسربلت امام عينيه بالسواد والضياع والتيه فتلاشى في صحرائها هذا الانسان الطموح ذو الروح المتوثبة .

« ودرب الحياة بابعاده قديم المتاه قديم الضلال .
ركام سماء رمادية وزحف ظلال وراء ظلال .
وليل البحار بآباره السود عميق تفجر نبع ضباب »

اذن لم يبق شيء في الحياة يستحق ان يعاش ، لم يبق الا السواد « العتمة » وتحديق الشاعر الابدي فيها ولهثة اخيرة ينفثها الشاعر

« مكادي ترنحت وانهدمت جبهتي الصاعده .
وظلت عيوني تحدق في العتمة الوافده .
ولم يبق في الكاس من خمرتي قطرة واحدة . »

هذا هو الحد النهائي لسيزيف ، وللانسان اذا تراءى له الفوز . لا فوز هناك ولا انتصار . هناك عتمة . وليس لك الا التحديق بها. فيم العزاء اذن ، اذا كانت السياط تلهب جلدك ، وكان اليأس يطاردك، ومن حولك عمق زرقة البحر وابارها السود ، وامامك الصخرة ؟؟

قال شوبنهور ـ الذي استعار ايضا اسطورة سيزيف ـ قد يكون الخلاص بالفن ، وشرح نظريته بالفن والجمال .

وكذلك رايت عبد الباسط يتجه الى موضوع تختلف معطياته مع معطيات شوبنهور طبعا . الا انه ربما يرى فيه العزاء .

« انا والشراع وقيثارتي غربة وارتحال »
افتش عن وعلة خباتها اقاصي التلال
على جيدها اتلعت كبرياء المروج اختيال


فتاة في المدينة ..

مجموعة اقاصيص بقلم

محمد ابو المعاطي ابو النجا

دار الاداب — صدر حديثا

وتفلت فوق النسائم مذعورة شـارده
انا وعلتي كل ايامها وجل او دلال
ربيعية العشب تعبق انفاسها الراغده

في هذه اللحظة التي ينسرق فيها الانسان من جبرية القدر يتجه الـى الجمال وتتراءى صور الجمال الريفي كمقدمة الى المرأة . صور منتقاة من افريقيا ومن بلادنا : وعلة وتلال ، مروج ونسائم .

تبدأ النفس بالاسترواح قليلا ، ينشال العبء عن اكتافنا ، نحط الرحال ، ننسى ولو قليلا ، علنا نرشف لذاذات تريحنا من عبء الحياة.. ثم يتطور هذا المرح الطفولي ـ ان صح الوصف ـ الى احلام الشباب .

« افتش عن شهر زاد برونزية طوقتها كنوز البحار
مضمخة جسدا حر كالصيف جم الحنايا لفيف الثمار
رخامية الصدر في قبتي لذة ناهده
تصب عتيق النبيذ لمأدبة واحده .. الخ

يبدأ بصور المرأة الشهرزادية الجميلة المعطاء . وتظهر المرأة هنا كمـا تظهر دائما في شرقنا ، امرأة برونزية حارة لكنها لم ترو شهريار الامير « كما استغل هذه الفكرة توفيق الحكيم في ـ شهرزاد ـ » . لكـن شاعرنا لم يقف عند مستوى الاشباع بل صعد الى مستوى الحب الصوفي حتى اننا نرى عنده كلمات الغزل الصوفية ! عله يرتوي في هذا النوع من الحـب .

« سراجين زيتهما الحب اعطى الهوى شعلتين »

ونعود الى محاولة الخلاص .

كثر هم الذين وجدوا الخلاص في الحب ، الحب الصوفي ، وبالتالي الحب الالهي حيث تتحد ذات المحبوب بذات المحب ويصبحان كيانـا واحـــدا .

ولا نغالي اذا قلنا ان عبد الباسط احس بوحدة الوجـود واتحـد به عن طريق الحب يقوده خيط الجمال منذ ـ المرح الطفولي ـ حتـى الاحلام بشهرزاد ـ حتى الحب الصوفي ، يقول :

« وتسالني كل افريقيا يامكادي
لمـن انت تطوي البحـار ؟؟
افتش عن شهرزادي وعن قطعة من فؤادي
افتش عنـك مكـادي .

اذن بالحب ، تلاشت حدود الاشياء ، وحدود الجسد . وصارت ، من خلال الروح، كلها وحدة تسمح للروح بان تسري فيها جميعا: شهرزادوقلبه، ومكـادي .

ويزدهر عبد الباسط بعد ان اعطى روحه للحب ويخاطب مكادي :

مكادي ايا جنة الحب في الجزر الراقدة .
ايا عطش الراحلين الى النبعة الباردة !
هذه التي يفتش عنها ويقلب المرافيء

قد نستطيع القول بانه اروى ظمأه ، بعد ان عرف ان طريق الحـب هو الذي ينقذه من عذاب سيزيف بعد ان رأى ان لا امل في الحيـاة ولكننا لانستطيع التأكد من ان المشكلة الاساسية قد حلت .

اما شوبنهور فلم ير الحل في الفن ، انما هو نوع من الخلاص .

اما عبد الباسط فلا ندري اهو خلاص ام حل ؟ انه يعود اخيـــرا ليختم جولته في الحياة متسائلا ام معجبا .

فبعد ان بث مكادي جميع اسراره وكدنا نراه يطمئن اليها وهي رمز خطابي فقط نراه يلتفت ويقول :

على اي ارض يغني مع الفجر انسانها ؟
باي الشواطيء تكتظ في الشمس الوانها ؟
توسدت عرش البحار ؟
باي محـار
مكادي ! باي قرار ؟

اذن ستظل تلاحقنا ابدا اشارات الاستفهام .

سلمية — اسماعيل حمود


# الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

**الادارة**

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

**الاشتراكات**

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينان
او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ١٠ يعادلها

**تدفع قيمة الاشتراك مقدما**

**حوالة مصرفية او بريدية**

*

**الاعلانات**

يتفق بشانها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

**مجلة الآداب** ، بيروت ص.ب ٤١٢٣